شَرَفُ الشّمس

قصة إمرأة وتحديات من الحَياة

السيد محمود الموسوي

شَرَفُ الشّمس

قصة إمرأة وتحديات من الحَياة

السيد محمود الموسوي

بسم الله الرحمن الرحيم

بمثابة تقديم

هذه القصة حقيقية ورويت عن الإمام الصادق عليه السلام، وقد عمدت إلى صياغتها أدبياً مع استظهار العبر.

نقلها الشيخ الكليني رحمه الله في الكافي، الجزء الخامس، في الصفحة ٦٥٥، ونقلها ابن فهد الحلي رحمه الله في كتاب عدّة الداعي، في الصفحة ٦٧٢.

1

في يوم من أيام بني إسرائيل، تلك الأمة التي تعاقبت عليها الأنبياء، وتوالت عليها الملوك، وفي إحدى مدنها الملكية، ينتصب قصر عظيم على أطرافها العالية، وفي وسط القصر المشيد ينتصب عرش الملك في تفاخر وبهرجة، حيث تمتدّ على جانبيه الأرائك الزاهية لكبراء القصر ومستشاريه، راسماً لوحة الهيبة والجبروت والتفرّد التي عادة ما يضفيها الملوك على شخصياتهم كمكملات للنقص ومجملات للقبح ومزرقات للضعف في قلوب الزائرين.

دخل الملك إلى ديوان عرشه المظلم، دون أن يسمع فيها نفساً لبشر، والوقت كان آخر الليل، فكل الحاشية الملكية تغطّ في سبات عميق، لذلك فخطوات الملك يسمع صداها في أروقة القصر.. طق.. طق.. طق..

دخل الملك مطرقاً رأسه إلى الأرض، رابطاً يديه خلف ظهره، يجول تفكيره في أمر قد أهمّه واستحوذ على تفكيره، إنه

يبحث عن من يقضي له مهمة ما، خارج المدينة، يبحث عن شخص أمين يستطيع أن يثق به كل الثقة، لينجز المهمة بنجاح تام، والحال أن حاشية الملوك عادة ما تكون متخمة من أكل الحرام، وتساورها دائماً أفكار الإنتهاز والاحتيال، وتنطلق من أعينهم مرامي الطمع وشرر الجشع، فلا يصلح منهم أحد لإنجاز مهمة الملك..

تدور الأفكار داخل رأس الملك وتخرج منه دونما إجابة، أين يحصل على شخص يمكن أن يثق به لانجاز مهمته؟

وحال توسدّه على أريكة عرشه الملكي اعترضته فكرة أن يتوسّل بقدرات ومعلومات قاضيه، ولأن القضاة عادة ما يكونوا محل ثقة وموضع اطمئنان، فمما لا شك فيه أنهم يعرفون الأشخاص الصُلحاء من بين سائر الناس، أو أن لديهم القدرة على انتقاء الموثوقين منهم كما تنتقي الطيور حبوبها الجيدة من بين الكثير من الحبوب الفاسدة..

نعم القاضي هو الباب الذي ينبغي أن ألج منه نحو حصولي على ضالتي.. هكذا فكّر الملك، وشعر أنه قد توصّل إلى الحلقة المفقودة، وهي الفكرة التي أراحت باله، وأصلحت أمر فراشه، ودفأت جسده حتى يخلد إلى النوم بكل راحة، وبالفعل قام وارتمى على فراشه الوثير وغاص في نومه العميق..

***

2

أشرقت شمس صباح اليوم التالي وتسلّلت أشعتها الذهبية إلى فراش الملك، وتخلل ضوؤها إلى عيونه، فنبّهه من نومه، فاستيقظ سريعاً ليرتدي الجلباب الملكي المذّهب، وأشار إلى خدمه لإصلاح تاج رأسه وبقية المعلّقات اللاّمعة التي تميّز الملوك عن البشر العاديين، وهمّ على غير عادته إلى البلاط الملكي، ولمّا وطأت أول قدم له في البلاط، تموّج ما حول العرش، وتعالتأصوات كحفيف الشجر في يوم تهبّ فيه الريح، كان ذلك صوت قيام الحاشية الملكية عندما رأت الملك هامّاً بالدخول..

جلس على عرشه ولم يبد أي ترحيب، وكأنه لا يلتفت إلى تلك الأعناق المشرأبهة، والقامات الخاوية..

أصدر أوامره: اجلبوا لي القاضي، اجلبوا لي القاضي بأقصى سرعة..

هكذا هم الملوك المتسلّطون، كالأطفال عندما يرغبون في

شيء فإنهم لا يهدأون حتى يحصلون عليه، معتقدين أن كل ما في المملكة هو ملك خاص لهم لا يشاركهم فيه أحد، وحتى لو كان ذلك الشيء من البشر، فكل الأشياء لديهم سواء فإن البشر كالبقر وكالحجر، يؤدون الحاجة ويشبعون الرغبات الخاصة بالملك، فكل ما في المملكة هو قطعة منها ذات ملكية خاصة به.

لم يمض من الوقت كثيراً وإذا بالقاضي ماثلاً أمام الملك، ملبياً نداءه، ومستعداً لاستقبال الأوامر التي يقرّرها عليه، كان يفترض أن يكون القاضاة مستقلّين في سلطتهم عن سلطة الملوك، وسلطتهم لها اعتبارها ومكانتها وكلمتها التي لا يمكن لأحد من الردّ عليها، إلا أن بعض القضاة ما هم إلا أدوات وعبيداً لدى الملوك، يقرّرون ما يقرّره الملك، ويرفضون ما يرفض، بل ويطوّعون كل الأحكام ويلوون عنق الحقائق لمصلحة الملك ورغباته المتقلّبة.

أيها القاضي: إنني أريد شخصاً موثوقاً يؤدي لي مهمة غاية في الأهمية، فانتخب لي واحداً أعتمد عليه وأرسله لي على وجه السرعة.

ردّد القاضي سنفونية الطاعة والامتثال للذات البشرية التي لا تُمس: أمرك سيدي، سيكون الشخص المناسب ماثلاً بين يديك في أقرب وقت.

فاستأذن القاضي ملِكَه، وقفل راجعاً ناحية بيته، وعقله لا يفكّر في الطريق، بل يفكر في الشخص المطلوب، أين يجد هذا النوع من البشر بهذه المواصفات التي يمكنه أن يكون بمثابة راية بيضاء له عند الملك، خطواته في ناحية، وأفكاره في ناحية أخرى.. انتهت خطواته عند باب بيته، إلا أن أفكاره انتهت أخيراً عند باب بيت أخيه..

نعم للقاضي أخ صالح يعيش حياة سعيدة مستقرة وهانئة هو وزوجته الصالحة، ليس معهما ثالث في بيتهما الدافئ بالمحبة، فكّر القاضي في هذا الأخ ليكون موضع ثقته ليدخل به الرهان مع إرادة الملك، فهو يمكن أن ينجز المهمة على أكمل وجه، ولا يمكن أن يكون خائناً، ولا طماعاً، فالتقوى كانت تتقاطر من محيّاه، فما كان من القاضي إلا اتباع أفكاره، فانعطف ناحية بيت أخيه، ليعرض عليه المهمّة.

***

3

طرق القاضي باب بيت أخيه، ولمّا فتح الباب أخبره أن يلحق به إلى بيته، يريده في مهمة، فلحق الرجل الصالح أخاه القاضي إلى البيت، وجلس عنده كما يجلس الرجل عند قاض محترم من عادته أن لا يتفوّه إلا بما هو في صالح عامّة الناس، ولا يدعو لأمر يكون فيه اختلالاً للنظام، فالقضاة من موقع مسؤليتهم يتجاوزون المصلحة الشخصية أو الفردية لأن عينهم على مصالح النظام الاجتماعي والعدالة الشاملة، فكّر الأخ بكل ذلك وهو شاخص بين يدي أخيه القاضي، فلابد من استقبال كلامه بنوع من الأهمية وكثير من الإطمئنان.

قال القاضي: يا أخي إن للملك مهمّة لا يمكن أن يؤديها إلا أنت، فقد طلب أن يقضي حاجته في خارج البلدة رجل موثوق أمين، وأوكل لي أن أبحث له عن ذلك الرجل، وإنني لما جال فكري في هذه المدينة فيمن أعرف منهم، لم أجد غيرك يصلح لهذه المهمّة، فقد أصبحت الثقة من النوادر في هذا المجتمع..

أطرق الرجل رأسه إلى الأرض، وأحسّ بثقل ما يريد القاضي إناطته به، ليس لأنه ليس أهلاً لذلك، وإنما لأن ظرفه العائلي لا يحتمل مثل هذه المهمّة، فقال الرجل لأخيه القاضي في لهجة معتذرة: إنني أتشرف بأن ألبّي طلب الملك، وأن تقضى هذه المهمّة من خلالي، إلا أنني أقدّم اعتذاري وبين يديّ ظرفي العائلي، فإنني كما تعرف أعيش وحيداً مع زوجتي، ولا أتمكّن من تركها تعالج وحدتها دون أنيس، ودونما أحد يقضي حوائجها، فإنني أكره أن أتركها بهذه الحال، فأرجوا أن تُبلغ الملك اعتذاري، وإنني واثق من أنكم وكذلك الملك تقدّرون حالات الناس الضعفاء الذين يحترمون بيتهم العائلي ويسعون لراحة أهلهم حتى لو كان ذلك على حساب ما سوف يعود عليهم من المال الوفير.

إلا أن القاضي لم يقنع بهذا الكلام، وهو أصلاً لم يلتفت إلى سيل الاعتذارات التي ساقها أخوه، لا يفكّر إلا في أمر واحد، وهو أن الملك أمره بأمر وأوكل له مهمّة لابد أن يكون عند حسن ظنه فيها، وإلاّ نزلت رتبته من عين الملك، وتتلاشى الحضوة عنده، أو قد يزيل من تحته كرسي القضاء..

قال القاضي لأخيه بلهجة رسمية صارمة: هذه حاجة الملك وليس لك حيلة سوى الذهاب لامتثال الأمر، فلا تقنعني هذه الأشياء التي تفوّهت بها، فإن حاجة الملك فوق كل حاجة، وأمره فوق كل أمر، ومصلحته فوق كل المصالح، فاحزم أمرك ولبّ ما

أوكل إليك..

ملأت الحَيرة رأس الرجل، فاستأذن من أخيه القاضي ليعرض الأمر الذي حل به على زوجته ويسعى لتمهيد السبيل لهذا الأمر، فمشى ناحية بيته بخطوات مسرعة، تحكي استياءه وحنقه من ضغط أخيه عليه..

***

4

عندما دخل الرجل بيته، شعرت زوجته بتغيّره الذي طرأ عليه، فهي تعرف حلات زوجها إن كان في حالة الفرح أو الضيق والهمّ، فسارعته بالسؤال: ما الذي أجده في محيّاك يا زوجي الحبيب؟

قال الزوج: لقد اعتراني الهم، لما أخبرني به أخي القاضي من أن الملك يريدني في مهمّة خاصة، تقتضي سفري وابتعادي عنكِ، ولم يسمع أخي اعتذاراتي، ولم يأبه بها، فإن هذه المهمة تقتضي مني أن أغيب عنكِ فترة طويلة من الزمان، وأنا أكره أن أتركك وحيدة ليس لك من يعولكِ..

قالت الزوجة: وأنا كذلك لا أود أن تتركني لهذا العالم الذي استشرت فيه الخيانة، وانعدم فيه الاخلاص، وتلاشى عنه الصدق، حتى أصبحت هذه الأشياء عملة نادرة، ولكن يا زوجي الحبيب، هل أن الملك اختارك واختصك دون غيرك لهذه المهمّة؟ أم أنه أراد أي شخص موثوق يؤدي مهمّته؟

قال الزوج: يا زوجتي الحبيبة، أنتِ تعلمين أن الملك لا يعرفني ولا يعرف صفاتي، فلم أكن من رواد القصور ولا من الذين يقتاتون على حواشي الملوك، ولكنه أخي القاضي هو الذي انتخبني بين كل الناس لما عرف مني أنني لا أسعى لمال أو لجاه كما يسعى هو.

قالت الزوجة: إذاً يمكنك الرفض ورفضك هذا ليس لأنك لا تريد الإستجابة لأمر الملك، وإنما لأن لكل شخص ظروفه، وظروفك لا تسمح بأن تنجز هذه المهمّة، فأنت إنما تحيط زوجتك برعايتك واهتمامك وأمانك، فأنت ظلي الذي استظل به وأنت كهفي الذي ألتجئ إليه من عيون الناس التي تزلق الآمنين، وأنت ستري الذي أتوارى خلفه عن أطماع الطامعين، وانجوا به من مكائد مرضى القلوب، ولا شك أنهم في موضع يقدّرون مثل هذا الأمر الكبير، فلا أحد يقبل بأن يترك زوجته فريسة سهلة وسط غابة ملئة بالوحوش، فلو أن لي من أكون في كنفه آمنة لهان الأمر، فأنت تعلم أن لا أهل لي هنا غيرك، فأنت أهلي كلهم.

قال الزوج: لقد أخبرت أخي القاضي بذلك، إلا أنه يعتبر طلب الملك أمراً له، وعندما أعيته الحيل في البحث عن غيري لم يعتبر إخباري إلا أمراً واجب الطاعة والامتثال، ولكن ما رأيك لو أخبر أخي أن يقوم برعايتك، وينظر متطلباتك حال غيابي، فيقضيها لك ويخفف عليك عناء الطلب، والاختلاط بمن هم

في الأسواق؟

قالت الزوجة: إنني لا أقصد حاجاتي للمال أو الراحة من تعب الطلب، فهذا أمر يمكن تحمّله في سبيل حياتنا الزوجية، فلو لزم الأمر لقمت بطلب المعيشة معك جنباً إلى جنب، إلا أنني أقصد أن المرأة لا يمكن أن تكون وسط مجتمع لا يعير أي حرمة للنساء، ولا تحجزه تقوى عن ارتكاب الآثام والمعاصي، فإن حافظت المرأة على عفافها، فمن الصعوبة أن تدفع اعتداءات المعتدين عنها..

عزم الرجل على رفض الخروج من المدينة، إلا أن أخاه القاضي أصرّ عليه، بل ألزمه الأمر، وبيّن له أنه ليس هنالك أي منفذ يمكن أن ينفذ منه للتخلّص، فقال الرجل لأخيه القاضي :إذاً أنت تقوم مقامي في رعاية زوجتي، وتعمل على تلبية متطلباتها وقت غيابي عن المدينة لإنجاز هذه المهمّة المناطة بي، فإنك تعلم أنه ليس لي إلا هذه الزوجة ولا عيال لي منها وهي وحيدة ليس لها أهل تركن إليهم غيري..

قال القاضي: هذا أمر سهل أداؤه ومتيسّر القيام به، لا تخف ولا تحزن يا أخي، ستكون زوجتك في رعايتي الخاصة، أطبق عليها باهتمامي فلن تحتاج إلى احد من الناس.. فالأهم أن تهمّ بالخروج إلى أداء المهمة على أكمل وجه..

عزم الرجل حيث لم يجد بداً من القبول، وشدّ رحاله ناحية بوابة المدينة قاصداً الخروج لأداء المهمة المناطة به، بعد أن ودّع زوجته الحزينة، وربّت على كتفيها مطمئناً قلبها أن لا تخافي ولا تحزني، فإنني أوصيت أخي القاضي بك خيراً، فلن تحتاجي لأحد من البشر.. والزوجة بدورها خضعت للأمر الواقع وودعت زوجها ولا يزال يعتمر قلبها الخوف والحزن، إلا أنها إلتجأت إلى الله، وسألته أن يعطف عليها برعايته وينشر عليها من رحمته، فإن الله هو الملجأ في المهمات..

إن زوجته هذه قد ولدتها الأنبياء، فهي من سلالة طاهرة، وربيبة النفحات الرسالية، تعي تماماً أنه لا مفر من نكبات الدهر إلا بالتوجه إلى الله والعروج إلى ساحته القدسية واستنزال رحمته بالتضرّع..

***

5

باتت الزوجة وحيدة قابعة في بيتها، تتخذه ستراً عن الناس وتلوذ بالأبتهال إلى الله تعالى، ليؤنس وحشتها، تتعلق أناملها بلطفه ورحمته.. ولم يمض وقت طويل على هذه الحال إلا وباب بيتها يطرق، همّت لتتفحّص من الطارق.. وإذا به القاضي، جاء ليفي بعهده متفقداً حال زوجة أخيه، ويلبّي لها حاجاتها البيتية اللازمة كي يوفرها لها دون أن تتكبّد العناء، فيكفيها مأونة الإختلاط بالناس..

فتحت المرأة باب البيت في اطمئنان للقاضي الذي تعرف غاية مجيئه، لأن زوجها أخبرها بالاتفاق الذي أبرمه مع أخيه من رعاية زوجته، فلمّا أحس القاضي بالباب يفتح، همّ ليسأل زوجة أخيه عن احتياجاتها، فسبق نظره لسانه، فوقع بصره على جمال فائق، وقدّ ممشوق، وأنوثة جاذبة، فتكسّرت كل العهود والمواثيق التي أبرمها مع أخيه، فبهره جمالها وفُتن بهذه المرأة التي كان ينبغي أن يرعاها ويكون حاجزاً لها عن افتتان الآخرين، فتحرّك فيه

شيطان الخيانة، واعترته وساوس النفس، واستبدت به الشهوة، فلم يحجزه ورع ولا إيمان عن دعوتها لتلبية رغباته الشيطانية، ليقضي منها جاجته ويشبع نهمه..

فما كان من المرأة إلا الصدّ والامتناع عن الانجراف إلى وحل الخطيئة التي يدعوها إليها هذا القاضي، ولاذت وراء جلباب عفافها، وأبت الاستجابة لمراميه الشيطانية، فقالت له مذكّرة: ألم تقطع لأخيك عهداً بأن تكون له عيناً عليّ وستراً لشرفي عن أطماع الرجال؟ فكيف تخون الأمانة، أمانة العهد مع أخيك وأمانة العهد مع الله البصير بما يجري..

قال القاضي: أقسم بأنكِ إن لم تمتثلي لأمري وتشبعي شهوتي، فسأقوم بحياكة قصة، أخبر الملك فيها بأنكِ ارتكبتِ فاحشة، ولم تتورّعي عن خيانة زوجكِ في غيابه.

قالت المرأة: لن تخيفني بما تحيكه لي من إفك وأكاذيب، ولن ألوّث شرفي بوحل مطامعك، اذهب إلى سيدك وأخبره ما تريد، فإنني لا أنحني للتهديد إن كان الشرف هو الثمن، فإنني أخاف الله ربي وربك، وهو يمنعني من أن خون عش الزوجية.

إلا أن القاضي اللئيم لم يتأثر بكلمات المرأة وتذكيرها له بعهوده وإيمانه، وما كان منه إلا الإصرار على أن يراود المرأة عن نفسها ويطلبها لترتمي في وحل شهوته، مكرّراً التهديد والوعيد،

ولم يكن من المرأة إلا الصلابة والثبات على إيمانها، فلا تريد أن تذروه رياح التهديد بالمصير الصعب، فهي تعلم أن المرأة الزانية عقوبتها في شرائع الإنبياء الرجم بالحجارة حتى الموت، إن ثبتت عليها التهمة واستحكم عليها الجرم، إلا أنها لم تبال بكل ذلك، فوضعت إيمانها وتقواها أمامها وحاربت من أجل الحفاظ عليه..

فما كان من القاضي الخائن اللئيم إلا الاسراع إلى سيده لينفذ تهديداته وينتقم من المرأة التي حطمت جشعه وداست كبرياء خيانته، ليفتري على المرأة العفيفة، ويتهمها في شرفها.

ظلت المرأة في بيتها مصدومة تعالج أعباء الخيبة، متذكرة زوجها الذي لا سبيل لإيصال صوتها إليه، والذي لم يعِ مراميها حيث ظن أنها كانت تحتاج فقط إلى خادم يزيح عنها تعبَ الطلب وعبء السوق، بينما هي كانت تشير إليه عن خيانة الذئاب البشرية التي انعدمت فيها روح التقوى ولا تراع للحدود التي تحجزه عن ارتكاب المحارم.. بقيت شاردة الذهن تحاول استيعاب هول الحدث وعظيم الواقعة، كيف لقاض هو موضع ثقة المتنازعين، ويفصل بين المتخاصمين ويدين المجرمين، وهو المسؤول عن إقامة الحدود وتنفيذ العقوبات، وتحقيق العدالة وبسط الأمان بين الناس، كيف ينزلق إلى وحل الخطيئة، ويضرب بكل ذلك عرض الحائط.. وفكّرت في أنه إذا كان القاضي هو المجرم فمن سيكون الحكم، ولكن لا ملجأ إلا الله، ونعم الحكم رب الأرباب، وعنده

تبتغى حلاوة العدل وأمان الإنصاف..

نفّذ القاضي وعيده، واتهم المرأة العفيفة في شرفها الثمين، ولأن القاضي هو المدّعي، فإن الملك لم يلجأ إلى طلب الشهود والبيّنات، فما كان منه إلا التصديق دونما يختلجه شك في هذا الإتهام، كما أن القاضي هذا هو الذي قضى له حاجته ونفّذ طلبه في قضاء مهمته السالفة، فما كان من الملك إلا أن أصدر أوامره بإقامة الحدّ وتنفيذ العقوبة على تلك المرأة المظلومة، وتطهيرها مما ارتكبته حسب ما افتراه عليها القاضي الخائن، فأوكل للقاضي أمر التنفيذ وخوّله برجمها بمرأى من الناس حسب ما تسنّه قوانين الشريعة.

شعر القاضي بنشوة الإنتصار واعتقد أنه حصل على سلاح نافذ ليجابه به عفّة المرأة وقوّة تقواها..

فجاء معربداً عند باب بيت المرأة العفيفة، ليحطّم جدار الإمتناع، ويزيح درع الدفاع، بما أتى به من سلاح التهديد بتنفيذ الحدّ، فطرق الباب وفتحته المرأة من غير مبالاة، فقال لها مهدّداً: ها أنا قد خُوّلت بتنفيذ عقوبة الإعدام رجماً عليك، وأصبحت حياتك رهن قبضتي، وبإمكانكِ أن تشتري حياتك بثمن بخس، وهو أن تجيبيني إلى ما دعوتكِ له، وتلبّي رغبتي فيكِ..

قالت المرأة: والله لا أجيبك أبداً لما تطمع، وما تطلب ليس

زهيداً كما تفوّهت، بل هو أغلى مالديّ، وقد أمرني الله بصيانته وحصانته، وإن تساهلتُ فيه فإنني إذاً تخلّيت عن ديني وتقواي، فلن أجيبك، وافعل ما يسوقك إليه شيطانك وهواك..

فخرج القاضي الخائن من بيت المرأة العفيفة، ونادى جلاوزته وعمّاله وأمرهم بإخراج المرأة المتهمة من بيتها، لينفذ فيها الحكم الجائر بالرجم، فاحتوشوها من كل جانب، وجرّوها إلى خارج بيتها، فحفروا حفرة في الأرض، وألقوها في غورها، فاجتمع الناس من كل جانب للمشاركة في تنفيذ ما يأمرهم به القاضي، وأمسك كل واحد منهم بحجارة، فأصدر القاضي أمره دون أن يرف له جفن من شفقة، وما أن وصل الأمر إلى مسامع الناس، همّوا بالرجم، وإذا بالحجارة تتقاذف من كل جهة من أيديهم مستهدفة جسد المرأة النحيل، فارتطمت بها وأدمت جسدها الضعيف وأعياها الألم، فلم تستحمل الرشق، فخارت قواها، وأخذ جسدها بالأنهيار، فاستوى مع ألأرض، وتماهى مع الوحل.. فأغشي عليها وغاب وعيها عن مراقبة نتائج المكيدة المدبّرة ضدها..

توقف رشق الحجارة بعد أن عاينوا انهيار المرأة وهويها، وقد ظنوا أن روحها فارقت جسدها إلى غير رجعة، ورجع كل واحد إلى بيته، ومعهم القاضي يجرّ أذيال الخيبة مهزوماً من قوّة تقوى تلك السيدة العفيفة، ومطمئناً بأن خطته قد تمّت

واستحكمت فصولها، فإن جاء أخوه من السفر سيخبره بما فعلت زوجته من الخيانة وما صار إليه مصيرها المحتوم بتطبيق القصاص العادل!!

***

6

لمّا جنّ الليل وارتفعت النجوم، تحرّكت أطراف المرأة المرجومة في قعر الحفرة، فما زال بها رمق من حياة، فها هي تجد نفسها وسط حفرة قد أعدّت لرجمها، وقد أثخنت بالجراح.. أخذت تباعد الحجارة القاسية عن جسدها المرضوض، وتحرّكت نحو الخروج من الحفرة، وتشبّثت بأناملها الضعيفة بأطراف الحفرة، وبذلت وسعها في حمل جسدها الجريح إلى خارجها، فنجحت في الخروج من عنق الحفرة، وأخذت خطواتها تتّجه إلى خارج المدينة، إلى مكان حيث لا يوجد فيه أحدٌ من أهلها، وغادرت المدينة في حلكة الليل، واتخذته لها ستراً، ولم يلتفت لها من أهل المدينة أحد..

***

7

أخذت تجدّ في المسير بجسدها المثقل بالجراحات، وقد أبصرت من بعيد (ديراً) للعبادة، يسكنه راهب، فتوجّهت ناحيته، علّها تجد في بيت العبادة هذا بعض العون من أولئك العابدين الذين يرتادونه، فإن فقدت الأمان من الساسة وأهل السلطات وأدعياء العدالة، فإنها قد تجده لدى أهل الدين والعبادة، فهم يخافون الله ويدعوهم خوفهم نحو الوقوف مع المظلوم وعدم الإعتداء على الآخرين..

وصلت عند باب الدِير بعد جهد جهيد، خائرة القوى مثخنة الجراح، قد أعياها الألم، فرمت بجسدها المنهك إلى الأرض عند عتبة الباب، وكأنها متسوّل يستجدي العون، فأخذها تعبها إلى غفوة النوم وأغمضت عينيها لتستريح حتى طلع الصباح، وغربت الظلمة واشتعلت الدنيا بالضياء، لتأذن ببدء يوم جديد..

فتح الراهب باب الدير في الصباح، ففوجئ بجسد نحيل مطروح على الأرض، فأبدى اهتمامه بها، فأيقضها من نومها

وأدخلها إلى الدير وفي عينه دهشة الحال، فبادرها بالسؤال عن ما أوصلها إلى هذا الحال، فأخذت تتمتم بكلمات مشحونة بالحسرة والألم على الحال الذي وصل إليه الناس، فقصّت للراهب قصتها مع الرغبات الشيطانية للقاضي الذي حاك لها الأباطيل، فتألم الراهب لحالها وتعاطف مع قضيتها، فبدأ برعايتها وعمل على معالجة جراحاتها التي سببتها لها حجارة الرجم وداواها حتى تحسّنت حالها وتعافى جسدها من الآلام شيئاً فشيئاً.

لم يكن للراهب سوى طفل صغير يعيش معه، وخادم يقوم بشأنه، ويقوم مقامه حال غيابه، فعهد الراهب للمرأة أمر طفله الوحيد كي تقوم بتربيته وتغذيته وتلفّه بحنان الأم التي فقدها، وكل شؤون الرعاية التي يحتاجها طفل صغير، فباشرت المرأة العفيفة مهامّها راضية بما قسم الله لها، محتسبة الظلم الذي وقع عليها عند الله تعالى.

وفي أحد الأيام وعند غياب الراهب عن الدير جاء الخادم الذي يقوم مقام الراهب عند غيابه، ودخل على المرأة وهي تقوم برعاية الطفل أشدّ رعاية، فلما وقع نظره عليها وأبصر لمحة من جمالها، افتتن بها فلم يكن منه إلا الإستجابة للشيطان ولما يدعوه له، فدعاها إلى نفسه، إلا أن المرأةمازالت متمسّكة بشرفها، فأبت أن تعطيه ما يرغب فأخذ يزمجر ويهدّد، فقال لها: إن لم تجيبي طلبي لأقتلنّك الساعة.

قالت المرأة: إنني غير آبهة بتهديدك ولا يهزني وعيدك، فلا أجيبك إلى معصية، فإنني أخاف الله ولا أطيع أحداً سواه.

فأخذ يراودها عن نفسها وهي تستعصم بالله، وتمتنع عن الإنجراف إلى شهواته الشيطانية، وكل محاولاته وتهديداته لم تفلح ولم تجد نفعاً..

فتقدّم إليها واسترق الطفل من أحضانها وساقته قسوة قلبه إلى كسر عنق الطقل الطري، وزهقت روحه..

وبقيت المرأة تلوذ بركن الدير مدهوشة محتسبة صابرة، فأخذ الطفل وحمله إلى الراهب، وحاك قصة من خياله الشيطاني ضد المرأة العفيفة التي لم تستجب لرغباته..

فقال مدّعياً: إن هذه المرأة الفاجرة قد راودتني عن نفسي، ولّما استعصمت بالله ولم أجبها لمراميها تناولت الطفل وهدّدتني بقتله أو أستجيب لفجورها، إلا أنني أبيت إلا عدم الإنسياق وراء الشيطان، وما كنت أخالها تنفذ تهديدها، فعمدت الفاجرة إلى قتل الطفل، ولم يرقّ لها جفن ولم يستيقظ لها ضمير..

أخذ الراهب ولده المقتول بين يديه، وقلبه يتفطّر حزناً على فراقه.. وأسرع نحو المرأة المتهمة ليوبخها بما فعلت من الجرم جزاء الإحسان الذي أسداه إليها، أتقتلين طفلي وقد أحسنتُ إليكِ؟!

قالت المرأة مدافعة عن نفسها: لست المذنبة أيها الراهب المحسن، بل هو الذي راودني عن نفسي، وأنا التي استعصمت، ولم ألبّ رغبته الشيطانية، فعمد إلى الطفل وقتله على الفور، ليتّهمني بهذا الجرم الكبير..

كيف لهذه المرأة أن تقنع هذا الراهب بخيانة من وضع ثقته عنده، واستودعه أماناته وكل شؤونه، وهي التي تعتبر حديثة عهد بهذا المكان وهؤلاء الناس، فإنها بذلت كل جهدها في إخبار الراهب بالرواية الصادقة، لما حدث ولما ابداه ذاك الرجل من أطماع شهوانية لا تحل له بحال، كي تزيح التهمة عن نفسها..

إن الراهب لم يقم بمعاقبتها على ما اخبر به خادمه، إلا أنه قال للمرأة:

على أية حال، سواء أكنتِ الصادقة أو كان هو الصادق، فلم يعد لي رغبة في بقائكِ في هذا المكان، فأرجوا أن ترحلي على الفور.

فمدّ الراهب يده إلى جيبه، فأخرج عشرين درهماً وأعطاها للمرأة، لتسد بها رمقها، وتستعين بها على طريقها، فأخذت المال، ولملمت نفسها وخرجت في ليل ذلك اليوم من الدير إلى مصيرها المجهول، باحثة عن ملجأ تركن إليه، وتحافظ فيه على عفافها وإيمانها.

***

8

اتخذت المرأة العفيفة طريقاً ليلاً تلتحف الظلام وتهتدي بالضوء الخافت المنبعث من القمر والنجوم إلى طريق الجادة، الذي لا تعلم إلى أين يأخذها، ولا تدري أي مصير ينتظرها..

مشت على قدميها الضعيفتين طيلة الليل تطوي المسافة، وهي مثخنة بجراحات القلب وألم النفس الذي سبّبه لها ذلك الرجل الذي رماها بتهمة جائرة أصابت قلبها الطاهر وآلمته، إلا أنها تضمّد تلك الجراحات البليغة بالإيمان والثقة بالعدالة الإلهية التي ستأخذ حقها وتأخذ بثارها ممن ظلمها افترى على شرفها العزيز، وهي تؤمن إيماناً راسخاً بأن الله إن لم يرِها عدالته في الدنيا فإن محكمته الكبرى في الآخرة لا يفلت منها أحد، ولو كان ما فعله بمقدار ذرة من عمل السوء، وأن الله يدّخر لها جزاء حسناً لقاء صبرها وإيمانها وصيانتها لجوهرة عفافها، هكذا يعالج المؤمنون أنفسهم ويطببون قلوبهم المدماة من آثار السوء الذي يسببه لهم الآخرون، فيستشعرون الرضا، ويستقوون لمواجهة

أعباء الحياة، ويتخطون أشواكها.

واصلت المرأة خطواتها حتى تنفّس الصبح وشعّ ضوء الشمس على الأرض، وأبصرت السماء والشجر، فانتهى بها المسير إلى حائط قرية، فدخلت تلك القرية بحذر وتوجّس، فهي لا تعرف فيها أحداً، فأخذت تجوب طرقاتها علّها تجد مكاناً تأوي إليه، وبينما هي كذلك أبصرت عيناها حشداً من الناس، فاقتربت لتكتشف سبب اجتماعهم هذا، فوجدت شخصاً مصلوباً في الأعلى، وسائر الناس تتطلع إليه بلا حراك، وكأنه ينتظر حتفه بالموت البطيء، فلا يزال به رمق من حياة..

تقدّمت المرأة نحو جماعة من الناس مستفهمة عن هذا الحال الغريب الذي لم تألفه من قبل، فقالوا لها: أن قصة هذا الرجل أنه كان ميدناً بعشرين درهماً لأحدهم، ولم يف بدينه في الوقت المحدّد، وأن لدينا في هذه القرية قانوناً يقضي بأن يعلّق الرجل المدين على صليب، ويبقى حتى يفي بدينه أو يتسلل إليه الموت..

تحرّك في قلب المرأة حسّ العاطفة والرأفة تجاه هذا الرجل المسكين الذي أضرّ به الفقر، وشلّه عن أداء دينه، فنظرت بعين الإيثار إلى الدراهم العشرين التي في حوزتها التي حصلت عليها من الراهب، إن هذه الدراهم تفي بتمامها لإنقاذ حياة هذا الرجل المصلوب، فتقدّمت نحو الشخص الدائن، وقالت له: يا هذا،

أنت تطلب من هذا الرجل عشرين درهماً، هكها، وارجوا أن تنزلوه عن هذه الخشبة، ولا تقتلوه.

تعجّب الرجل من تعاطف المرأة التي لا تعرف الرجل إلا أنها بادرت إلى إنقاذ حياته، فاستجاب لأمرها بعد أن استحوذ على المال، فأنزل الرجل وأُنقذ من الصلب..

فلمّا أُنزل الرجل تنفّس الصعداء، وانطلق نحو المرأة ليبدي لها امتنانه على ما قامت به من إنقاذ حياته، فقال لها: إعلمي أيتها السيدة المحسنة، أن أحداً من هذه القرية لم يتفضّل عليّ بما تفضّلت به عليّ، وأنا الذي عشت بينهم سنين طويلة، وقد أنقذتني من الموت المحقق وأنتِ لا تعرفيني، فليس لي أمام هذا الإحسان الكبير من مال أفي به حقك عليّ، لكني وتقديراً وعرفاناً مني لعملك الجليل عزمتُ أن أكون إلى جانبكِ في وحدتكِ، وسأخدمك أينما ذهبتِ..

لم تمانع المرأة من ذلك، وهي بأمسّ الحاجة ولو لصورة رجل بالقرب منها، كي لا تقع فريسة تزلقها عيون الطامعين، فمضى الإثنان خلال القرية، وانتهى بهما المطاف إلى ساحل البحر في جانب القرية، والذي يبدوا أنه مرسى للسفن العابرة من أجل التجارة والنقل، فلمّا أبصر الرجل تلك السفن الواقفة على ساحل البحر، قال للمرأة: إن هناك سفناً يبدوا أنها تحمل بضائع للتجارة، أمكثي هاهنا في ظل هذه الشجرة واستريحي ريثما أذهب

لأعمل أجيراً لديهم، وآتيك بطعام يسد جوعك الطويل..

توجهت المرأة ناحية الشجرة لتأخذ قسطاً من الراحة تحت ظلها، لتنفض من عليها وعثاء السفر وضنك المسير الطويل، فأسندت ظهرها إلى جذع الشجرة العظيمة وتفيئت بظلال أوراقها الوفيرة، تنتظر رجوع الرجل الذي أنقذته من الموت، ليفي بشيء من حقها عليه، فيأتي بالطعام، فهي تتضور جوعاً فقد مضى عليها يوم وجزء يوم لم تتذوق فيه شيئاً من طعام..

***

9

لقد استمرّت الحياة في المدينة الأولى التي خرجت منها تلك المرأة، بعد ان نجت من عقوبة الرجم الظالمة، وقد رجع زوجها الغائب عنها من سفره وأخبره أخوه القاضي بآخر فصول مكيدته، فاستسلم الزوج إلى رواية أخيه، وظن كما ظن الجميع أن زوجته قد فارقت الحياة متأثرة بجراحاتها جرّاء عقوبة الرجم.

وفي أحد الأيام أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن يتوجّه إلى تلك المدينة، ويدخل على ملكها، ويوصل إليه رسالة الغفران المشروطة.

لبّى النبيُ نداء الوحي الإلهي، واتجه لقصر الملك، وأخبره بأن هناك إحدى الجزر، يقطن فيها مخلوق من مخلوقات الله تعالى، وأن الله تعالى يقول: بأنكم إن اردتم غفران ذنوبكم فبإمكانكم، أنت ومن معك في هذه المدينة أن تتقدّموا له، وتقفوا بين يديه، وتقرّوا بذنوبكم، وتعترفوا بخطاياكم التي ارتكبتموها، واطلبوا من ذلك المخلوق العفو والصفح والمغفرة، فإن صفح وعفا

عنكم فإن رحمتي ومغفرتي ستشملكم، وإن أبى ذلك المخلوق، فإنكم محرومون من الدخول إلى حضرة العفو والمغفرة.

وإن كان الملك قد يزل ويظلم، إلا أنه يثق بالأنبياء وأن ما يأتون به الصدق والحق الذي لا اختلاف فيه ولا ريب، فقد وجدوا في بلاغه فرصة سانحة لنجاتهم من عواقب أعمالهم، وقبل أن تحيط بهم عواقب خطاياهم، والعاقل لابد أن يغتنم الفرصة قبل فوتها، ولو كان ذلك يكلّف اعترافاً وإقراراً بكل خطاياه، فالعفو الإلهي هو غاية كل إنسان، وإلا فإن عواقب الظلم والخطيئة عظيمة ولا تطاق، فإنها تحيط بالإنسان في الآخرة وتتحوّل إلى عذاب أليم..

فإن الله تعالى لم يخلق الجنة والنار عبثاً، بل خلقها ليضع ميزان القسط ويحكم بين الناس بعدله، فيجازي المحسن على ما اكتسب من الإحسان، ويجازي المسيء على ما ارتكب من الإساءة، ولأن رحمة الله سبقت غضبه، فإنه تعالى يبعث لعباده المنجيات كي يدخلوا أفواجاً إلى ساحة رحمته، فيشملهم فضله.

عزم الملك ومن معه على اغتنام الفرصة، وشدّوا الرحال متوجهين إلى حيث الجزيرة المعهودة والموعودة، لاستنزال العفو والتعرّض لنفحات الرحمة الإلهية من حيث أمر الله تعالى، فإن الله تعالى يريد من العبد أن يحقّق في نفسه الطاعة له سبحانه، فإن أمر الله أن يتخذ العبد وسيلة للتقرّب إليه، وتكون باباً لنيل

شفاعته التي ارتضاها، فعلى العبد أن يمتثل لأمر الله بالطاعة والتسليم والإلتزام بتلك الوسيلة، والتزامه هذا يعدّ حقيقة التوحيد الخالص، حيث يطوّع العبد نفسه لله ليوجهها حيث يريد، وعندها فإن أتعب الإنسان نفسه وأجهد في التهجد لله ليلاً ونهاراً فلن يقبل منه عمله أبداً، لأنه خالف حقيقة العبودية وانحرف عن التوحيد الخالص ، فهاهو الملك ومن معه يقرّرون مع أنفسهم، ويشدّون الرحال إلى الزيارة التي أمرهم الله، ليتوسّلوا بالمخلوق الذي أخبر عنه النبي، وجعله باباً من أبواب الرحمة الإلهية، ليعترفوا بذنوبهم في محضره.

***

10

بينما كانت المرأة في الوقت الذي مضى تخلد إلى الراحة تحت ظل الشجرة، وصل الرجل الذي أنقذته من الموت لأصحاب السفن، وتقدّم لهم بالسؤال: ماذا عندكم في هذه السفن؟

قالوا له: إنها بضاعتنا، مليئة بالجواهر والعنبر وسلع منوّعة مما تطيب له النفس وترتاح، وبضائع نتاجر بها في الأماكن التي ننزل بها، ونتخذ نحن من السكن كذلك سكناً لنا..

قال لهم الرجل: وما ثمن هذه البضائع التي تحويها سفنكم؟

قالوا له: إن فيها بضاعة ثمينة وكثيرة، وليس لنا طاقة على إحصاء كل ما تحتويه، مدّ بصرك وعاين بنفسك لتجد ما نقول حقاً.

ألقى الرجل نظرة على السفن الراسية على ساحل البحر، فوجدها بالفعل سفناً واسعة، وحمولتها عظيمة لا يمكن لشخص أن يشتري كل هذه البضائع منهم، فهي تساوي الكثير من المال مما تنوء بحمله الرجال، إلا أن الرجل لم يستسلم لصعوبة المأخذ

والمبتغى، فما كانت إلا برهة من وقت، قفزت في ذهنه فكرة شيطانية ما كرة، وقد يكون قد بيّتها في صدره منذ قدومه إليهم..

قال الرجل لأصحاب السفن: إن معي شيئاً ثميناً ونفيساً، وهو بلا شك أفضل وأغلى من كل ما تملكونه وما تحمله سفنكم هذه.

فقالوا له متعجبين: وما هو ذلك الشيء النفيس، الذي يضاهي ويزيد على كل هذه الكنوز، أفصح لنا أيها الرجل، لعلّنا نعقد معك صفقة العمر؟

قال لهم: إن لديّ جارية نفيسة، لم تروا جمالاً كجمالها، ولا إشراقة كإشراقتها أبداً طيلة حياتكم..

فقالوا له: أما تبيعها لنا؟

فقال لهم: ولم لا، قد أتنازل وأبيعها لكم، ولكن بشرط، وهو أن يذهب بعضكم ويعاينها عن قرب، ليتأكد من صدق مقولتي ودقّة وصفي، ثم يرجع إليّ هنا ونعقد الصفقة الكبرى، وإذا وصلتم إليها وشاهدتموها، فلا يخبرها أحدكم بأمر صفقة البيع، علّها تكره ذلك وتلوذ بالفرار.

ذهب جمع من التجّار ناحية الشجرة وارفة الظلال التي تتوسد جذعها تلك المرأة العفيفة، وقد أخذ التعب منها مأخذه، فلم تلتفت إلى أحد قادم نحوها، ولّما اقترب التجار منها، عاينوها،

وما أن وقع بصرهم عليها اتسعت حدقات عيونهم ذهولاً من شدّة ما رأوا من جمال لم يخطر لهم ببال، ولم يمر على مرآهم في زمن.. فقالوا: حقاً إن الرجل لصادق في إدعائه، فإننا لم نر جارية مثلها..

فرجعوا ناحية الساحل للقاء الرجل، وأخبروه بموافقتهم بشراء الجارية، وقالوا له: إننا نثمّن هذه الجارية بعشرة آلاف درهم، فوافق الرجل على الثمن على الفور، وباع ضميره ودينه قبل أن يبيع المرأة العفيفة التي أنقذت حياته من الموت المحقّق، فقبض العشرة الآلاف وعيونه تلمع من النظر إليها، فقال لهم: إنني أطلب منكم طلباً، وهو إن ذهبتم لأخذها من تحت الشجرة التي تتفيئ ظلالها فلا تخبروها بما جرى من صفقة بيننا حتى أرحل عنكم، فلا اريد أن أنظر في وجهها ولا تنظر في وجهي وأنا أقدم على بيعها.

بعد أن اخذ المال ارتقى أحد قواربهم وشقّ طريقه في عرض البحر في سعي حثيث إلى الهرب بعيداً، ولمّا غاب أثره عن أنظار الجمع عند الساحل، عمد التجار لأخذ المرأة التي يظنون أنهم اشتروها كجارية، فاقتربوا منها وهي تخلد إلى الراحة، لتفاجئ بمجموعة من الرجال يحيطونها، وكأن عيونهم تفترسها بنظراتهم المريبة..

فقالوا لها: هيّا انهضي أيتها الجارية الحسناء، وتعالي معنا لنركب السفينة، فقد أزف الرحيل.

قالت لهم في تعجّب: ولماذا آتي معكم، فأنتم غرباء، وإنني أنتظر رجلاً ذهب ليعمل عند ساحل البحر، ليأتي لي بالطعام؟

قالوا لها: أيتها الجارية، لقد اشتريناك من سيّدكِ هذا الذي تتحدثين عنه..

فتعجّبت المرأة، وقالت لهم: إنه ليس بسيدي، وما أنا بجارية له،

قالوا لها: وما شأننا نحن بهذا الكلام، لقد دفعنا ثمنكِ للرجل، وشق طريقه في عرض البحر، فلا سبيل له، والآن انهضي معنا طوعاً وإلا حملناك كرهاً..

استسلمت المرأة الضعيفة أمام إرادة مجموعة الرجال المتسلطين، ونهضت من مقامها وذهبت معهم لتواجه مصيرها المجهول، فتقدموا نحو الساحل حيث موضع السفن، وهمّوا بالصعود على سطح السفن، إلا أنهم لم يثقوا في أن تصعد المرأة السفينة التي يمتطيها الرجال خوفاً من أن تطالها أيدي صاحب السفينة، فقرّروا أن يصعد الرجال كلهم في سفينة، وأن يودعوا المرأة في السفينة التي تحتوي على المجوهرات والنفائس من البضاعة..

فأبحروا مسافرين، واتجهت السفينتان إلى عرض البحر تشقّان عبابه، والمرأة في سفينتها وحيدة، التجأت إلى الله وتضرعت إليه، فهو المنقذ من هذه المصيبة الكبيرة التي ألّمت بها،

فإن هؤلاء الرجل أخذوها عنوة كجارية مملوكة، وهذا يعني أنه يحق للمشتري أن يستمتع بجاريته متى ما أراد، فكيف يمكنها أن تمتنع وكيف ترد شهواتهم العارمة، وكيف تحمي شرفها الذي قاتلت من أجل صيانته..

فلا ملجأ ولا ركن وثيق إلا إلى الله تعالى، فبعد أن احسّنت لذلك الرجل الذي تنكّر للإحسان واستجاب لشره المال، وباع المرأة التي اشترت حياته من الموت بكل ما تملك من مال، ها هي تجد نفسها بين مخالب الرجال الأقوياء، وهي تتوسّد المجوهرات وتحيطها النفائس التي لا تعيرها اهتماماً، توجّهت بقلبها المكمد لخالقها، تدعوه بالخلاص، فهو تعالى قد وعد المحسنين أن يفتح أمامهم أبواب الإحسان الإلهي في الدنيا قبل الآخرة..

بينما وصلت السفينتان إلى عرض البحر واستقر حالهم في شق عباب البحر بكل تمكّن، وإذا بريح عاصفة بعثها الله بالغيب، فحرّكت المياه الراكدة، حتى بدأت تتلاطم، وأحاط الخطر بالسفن، فجاءت الأمواج العاتية ناحية السفينة التي تحمل على ظهرها التجار، فأغرقتها بالمياه، وانكفأت السفينة وغارت في عمق البحر، وغابت عن الأنظار، ولم يتمكن أحد منهم أن يدفع عن نفسه الغرق، فالتهمهم البحر الغاضب إلى غير رجعة..

وأما السفينة الأخرى التي تقل المرأة والنفائس، فقد كانت مستقرّة على سطح البحر تسير في وثوق، فقد أنقذها الله

من الغرق، وأخذت الرياح السفينة إلى الإرساء على ضفاف ساحل ساحر الجمال هادئ الطباع، لجزيرة خلاّبة.

نهضت المرأة لترى أي موطن ساقتها الرياح، فنزلت من السفينة لتستشعر قدماها بلل الماء البارد، وتداعب أمواج الساحل الهادئ الحاني، فتقدّمت وهي تستنشق الهواء العليل المحمّل بروائح الزهور الزكية، باعثاً على النشاط والسعادة، فتفاجئت بواقع الجزيرة التي لم تر مثلها في حسنا وجمالها، فمياهها العذبة تجري من تحت الأشجار المثمرة بمختلف الثمار، والحشائش الناضرة تصبغ أرضها، ووتوزع فيها العيون العذبة، لقد وجدت نفسها وسط جزيرة قد هيئها الله كجنة بارعة الجمال متكاملة الأوصاف، وفي هذه اللحظات لم يغب عن بالها عشها الزوجي الذي كانت هانئة فيه بتفاهم وانسجام مع زوجها، وقد فرّقت الأطماع بينهما، واستحضرت شريط المعاناة التي مرّت بها، وما سببه لها من ألم قلبي ونفسي وجسدي، فانهمرت دموعها على خديها في بكاء حزين..

أخذت المرأة تجوب الجزيرة فلم تجد فيها أثراً لبني البشر أو الوحوش، فما وجدته أنها في أرض أعدها الله كهدية لهذه السيدة التي حافظت على عفافها والتزمت بتقواها، فجزاها الله راحة في الدنيا وأمان وعيش رغيد وسلام، فرأت أن من الواجب شكر الله الذي أغدق عليها نعمه بعد ضنك العيش، فما من ضيق

إلا وبعده فرج وراحة، وهي تعرف أن كل ذلك هو نتيجة الإيمان ونتيجة صيانتها لنفسها وشرفها.

فقررت في نفسها: سأمكث في هذه الجزيرة الجميلة أتغذى من فاكهتها الطيبة وأشرب من عذب مائها الرقراق، وأتفرغ لعبادة ربي عز وجلّ، أسبحه وأصلي له صباحاً ومساءً على ما هداني وأنعم علي من خير جزيل.

افترشت المرأة العفيفة الشريفة الحشائش النضرة، وحلّقت بقلبها إلى بارئها متبتلة، في عروج روحي ترتقي درجاته استنزالاً لرحمة الله، واستئناساً بلذيذ مناجاته.. وكلّما أحست بقرص الجوع همّت ناحية الشجر ومدّت يدها تقتطف نوعاً من الفاكهة الدانية، وتناولتها بهناء..وكلّما شعرت بالعطش مدّت كفها للماء الجاري من تحتها، فارتشفت من عذوبته ما يرويها، فتواصل أورادها في العبادة والتهجّد بكل سلام وأمان.

***

الملك، والقاضي، وصاحب الدير ومعاونه، والرجل الذي أنقذته المرأة، والكثير من أهل المدينة الذين قرّروا اللجوء إلى ذلك المخلوق الذي أخبرهم به النبي ليتوسّلوا به إلى الله، ليشفع لهم وينتشلهم من خطاياهم..

شقّوا بسفنهم عباب البحر متلهفين إلى موضع الجزيرة المعهودة، فوصلت السفن ورست على ساحلها، ودخلوا الجزيرة الجميلة أفواجاً، يبحثون عن المخلوق الذي أوصاهم به النبي، فلم يجدوا فيها إلا سيدة قائمة للتبتل والعبادة في هيبة وجلال، قد أحاطتها نسائم الهواء المحمّل برائحة فواحة ذات أريج متنوع بفعل ملامسته الأزهار العبقة، وتحيطها الخضرة والماء والفاكهة الدانية، تقدّم الملك وتقدّم من معه نحوها مستشعرين هيبة العبادة وروعة المنظر، منكسي رؤوسهم تعبيراً عن خضوعهم واحترامهم، وقلوبهم متلهفة ليحضون برضا هذه السيدة الجليلة..

تقدّم الملك خطوات مقترباً ناحية المرأة التي يتدلّى جلبابها

على جزء من عينها حيث غابت ملامحها عنهم، فأخذ يدلي باعترافاته، وما اقترفته يداه في محضر ومسمع من السيدة الجليلية، ومسمع من كل الناس الذين جاؤوا معه..

قال الملك: يا سيدتي إنني ملك المدينة التي يقطنها هؤلاء الناس، وإنني في يوم من الأيام جاءني القاضي وأخبرني بأن زوجة أخيه قد ارتكبت الزنى وخانت زوجها الغائب، وما كان منّي إلا أن أصدرت حكماً بإقامة الحد، فرجمت بالحجارة حتى الموت، فلم يكن مني تفحّص ولا تبيّن عن حقيقة فعل تلك المرأة، وإنني أخشى أن قمت بعمل حرام قد ظلمت فيه نفساً بريئة، وها أنا واقف بين يديك معترفاً بتقصيري وتسرّعي، وأسألكِ العفو والصفح..

قالت المرأة، وقد كان الجميع ينصت للكلام: إن الله هو الغفور الرحيم، فأشارت بيدها أن أجلس هاهنا إلى جانبي، فتقدّم الملك وأطاع المرأة وجثى على ركبتيه بجانبها منتظراً ما ستأول إليه الأمور..

ثم تقدّم من الحشد زوج المرأة الذي لم يتعرّف إلى زوجته، وقد أخذته الهيبة والوقار عن التفحّص فيمن أمامه، وبدأ يشرح لها ما أقدم عليه من جرم مستنزلاً العفو والصفح، فقال: يا سيدتي لقد كانت لي زوجة في تمام الفضل والعفّة والصلاح وكمال الخلق والجمال، وتركتها في المدينة، ورحلت في أمر أقضيه، قد كرهت

مني الخروج وتركتها وحيدة بين الرجال، إلا أنني امثلت لأمر الملك وإصرار القاضي وذهبت، وعندما عدت من سفري أخبرني أخي القاضي بأنها قد خانتني بارتكاب الفاحشة، وقد أقيم عليها الحد بالرجم، وإنني لا أعلم الحال، وأخشى أنها فقدت وتاهت في متاهات الأرض، لذا فإنني أطلب منكِ الصفح والغفران، فأنا أعض أناملي من الندم عسى أن يرحمني ربي..

تحرّك رأس المرأة العفيفة قليلاً ونظرت إلى ألأرض، وسالت من عيونها الدموع لما آلت إليه الأمور، فهي قد سمعت زوجها وقد اعتراه ندمه حيث لم يتنبه لما خذّرته منه، وقد كان بإمكانه أن يكفيها ويكفي نفسه كل هذه المتاهات والشقاء الذي تعرّضت له..

فقالت له: إن الله هو العفو الغفور، وهو أرحم الراحمين، فأومأت إليه بيدها وقالت: أجلس هاهنا وخذ مكانك إلى جنب الملك، فأطاع الأمر على الفور وجلس.

بعد ذلك تقدّم القاضي الذي ألحق الأذى ظلماً وعدواناً بالمرأة العفيفة باتهامه الجائر، فوقف أمامهم مطأطأ رأسه في حياء من فعلته النكراء، قال: يا سيدتي كان لأخي زوجة صالحة في قمّة العفاف والإيمان، ولكن طمعي وعدم خوفي من ربي جعلاني أدعها لنفسي، فأبت الاستجابة واستعصمت بإيمانها ولم تبال بكل التهديدات التي توعدتها بها، فافتريت عليها فرية عند

الملك، واتهمتها بارتكاب الفاحشة، وأنا أقر صادقاً بأنها بريئة مما ألصقته بها، ولا أدري أأستحق الصفح والعفو والمغفرة بعد كل هذا الجرم الشنيع، أم لا.

فلاذ القاضي بالصمت كي يسمع رد فعل هذه السيدة الجليلة التي يبتني على صفحها صفح الله، وعلى مغفرتها مغفرة الله، فلا ولوج إلى رحمة الله إلا من بابها، فلم تعلّق المرأة على فعل القاضي بكلمة واحدة، فالتفتت إلى زوجها الذي يجلس إلى جانبها وجانب الملك، وقالت: إسمع يا هذا واصغ لما يقال من الجميع جيداً، ولا يغرب عنك من كلامهم شيء.

توجّه الزوج بكل حواسّه إلى ما تفرغه ألسن الرجال من اعترافات في محضر الجميع ولا يدري لماذا اشارت هذه السيدة الجليلة إليه بالخصوص.

ثم تقدّم راهب الدير الذي أكرمها وأحسن إليها في البداية، وبدأ يدلي بقصته مع سيدة وجدها مثخنة الجراح فطببها وعهد إليها رعاية ابنه الصغير، وقال: إنني أعترف بتقصيري وظلمي إياها، فقد أخرجتها من الدير في حلكة الليل، ولم أبالِ لضعفها ووحدتها، وأخشى أن يكون قد افترستها وحوش البراري، فهل استحق منك العفو والمغفرة ياباب الله الذي منه يؤتى؟

قالت المرأة الجليلة: إن الله هو العفو الرحيم، تفضل واجلس

إلى جانب هؤلاء الرجال.

فتقدّم بعده وكيل الراهب، والقائم بأعماله في غيابه معترفاً بذنبه، وما اقترفته يداه من اتهامها بأنها همّت به ودعته لارتكاب الفاحشة فاستعصم والحال أنه هو الذي همّ بها وهي التي استعصمت، فالتفتت المرأة إلى الراهب الجائي إلى جانبها، وقالت له: أسمعت أيها الراهب ماقاله وكيلك؟ ثم قالت للوكيل: الله هو العفو الغفور.

ثم قام الرجل الذي أنقذت حياته بالدراهم من خشبة الصلب والموت، وحكى لها قصة خيانته وطمعه في المال وقد دعاه ذلك لتسليم المرأة العفيفة الحرّة إلى جمع من الرجال كجارية مباعة بالمال..

الكل قد سكب اعترافاته وذكر تقصيراته وظلمه لهذه المرأة العفيفة، وأعناق الجميع مشرأبة مؤملة أن تنطق بالعفو والصفح عنهم، فرفعت المرأة رأسها إلى السماء ووجهت نداءها إلى خالقها: هو الغفور وهو الرحمن الرحيم..

ثم التفتت إلى زوجها النادم، وقالت له: أعرفتني يا هذا؟

قال الزوج: كلا يا سيدتي.

قالت المرأة: أنا زوجتك، وكل ما سمعته الآن من أفواه الرجال عن تلك السيدة المظلومة، إنما هو عني أنا، وهذه

حكايات ما جرى عليّ بعد غيابك، حيث أسلمتني إلى أنياب رجال لمّا يدخل الإيمان قلوبهم، ولم يعرفوا إلا الطمع واللهث وراء متاع الدنيا الزائلة، وقد كنت في حاجتك لترعاني وتحجز عني أطماعهم..

اندهش الرجل وتقاطر من وجهه الندم..

فأردفت المرأة: أما الآن فإنني لا أحتاج إلى رجل يرعاني، فقد كنت طيلة الوقت في رعاية ربي حتى أسكنني هذه الجزيرة الخالية من أطماع البشر وظلمهم، أعيش فيها متوجهة لربي بالعبادة والدعاء، فهذا غذائي وهذه حياتي، لذا أطلب منكم جميعاً أن تأخذوا تلك السفينة ومافيها من الجواهر والنفائس لأنفسكم، وتدعوني مع ربي في هذه الجزيرة.

وقالت لزوجها: لقد شاهدت بأم عينك ما لحق بي من الأذى بسبب الرجال الذين لا يحجزهم الدين عن ارتكاب المحارم، ولا يخافون الله الشاهد على أعمالهم، فاقتنع الزوج أشدّ الإقتناع، وقبل بما عرضت عليه، وأخذ السفينة، وشقوا طريقهم في البحر عائدين إلى موطنهم.

تمت في سجن الحوض الجاف

صباح يوم الإثنين

٤٢/ ٢/ ٢٠١٤م

مما صدر للمؤلف:

١. فن الاعتذار وقبول العذر

٢. الحب في العلاقات الزوجية

٣. فاطمة المعصومة الجنة الموعودة

٤. شهر رمضان شهر الإنجاز

٥. القادم من العالم الآخر (شرح أدعية شهر رمضان اليومية)

٦. زيارة الإمام الحسين (ع) سماتها الربانية وآثارها التربوية

٧. رضيع الحسين (ع) أصغر شهيد وأكبر شاهد

٨. العولمة والمجتمع

٩. منامات الحسين (ع) دراسة وتحليل..

للتواصل مع المؤلف:

السيد محمود الموسوي

الموقع الإلكتروني:

moc.ywasom.www

البريد الإلكتروني:

moc.liamg@doomams